

الكوميديا الالهية لدانتى

بقلم : الأستاذ ابراهيم المولى

عصر دانتى :

لم تشأ عائلة « قلف » الاعتراف به ، وقام صراع بين الأسرتين كانت ضحيته المدن الإيطالية بطبيعة الحال .

وتحول اسم « قلف » الى « جويلفى » فى النطق الايطالى و « فينبليجن » الى « جيبلىنى » Ghibellini واتخذت كل أسرة انصارا لها ، وظل الصراع قائما بينهما الى أن غزت فرنسا إيطاليا سنة ١٤٩٤ .

ويؤكد بعض المؤرخين ، ان العرب فى صقلية هم الذين حرفوا « فينبليجن » الى « جيبيلو » - وهو أمر اعتاده العرب فى تحريف الالفاظ الأعجمية ثم أخذ الايطاليون عنهم هذه التسمية وصاغوها فى الجمع فاصبحت « جيبلىنى » .

وعمت الفوضى السياسية غالبية المدن الإيطالية ولم تنج منها فلورنسا ، مسقط رأس دانتى حيث انقسم أهلها الى فئتين أو حزبين متعارضين هما « الجويلفيين » الذين ينادون باستقلال البلاد فى ظل الديمقراطية

ان الثروة الطبيعية التى تمتاز بها أرض إيطاليا وتفتت وحدتها بين ملوك الطوائف الذين تكالبوا على الحكم فى كثير من مدنها ، جعلها مطمع الدول المجاورة لها وعلى رأسها ألمانيا .

كانت إيطاليا فى ذلك العصر تتخبط فى ميدان السياسة تاركة أوصالها تتمزق بين الاضطرابات التى يزكى ضرامها النبلاء من أهل البلاد ، الدخلاء من الأسر الألمانية الكبيرة وأشهرها أسرة « قلف » Welf التى هاجر بعض أفرادها الى إيطاليا منذ القرن الحادى عشر واتصل نسبهم بالزواج بأسرة « دىستى » d'Este ذات الصولة ، وأسرة « هوهنشتاوفن » Hohenstaufen فينبليجن Winblingen التى نزلت الى صقلية وأقامت فيها .

وعندما توفى الامبراطور « لوتير » Lothaire سنة ١١٣٧ وانتخب « كونراد » Conrad امبراطورا خلفا له - وهو من هذه الأسرة الأخيرة،

وتحت الراية البابوية ، و « الجبيليين » أنصار
الارستقراطية والحكم الاقطاعى فى كنف
الامبراطورية الألمانية . واشتهر الحزب الأول باسم
السود Neri والثانى بالبيض Bianchi
ترك حزب السود خطاه لاسرة دوناتى Donati
النبيلة ، واختار البيض - وجلهم من التجار
والصناع وأهل الحرف - أسرة تشيركى Cerchi
لترشدهم الى سبل الاستقلال القومى المنشود .

كانت الفئة الثانية - لكثرة عدد أفرادها - قد
فرضت على فلورنسا حكما ديمقراطيا لا يشترك
فيه النبلاء . ولكن سرعان ما وجدت بذور التفرقة
والشقاق أرضا خصبة عندما بدأ الأثرياء من التجار
وأهل الحرف يستغلون الطبقة الدنيا من الأهالى
كما كان يفعل النبلاء ، الأمر الذى دعا جانو دلا بلا
Giano della Bella الى سن دستور سنة ١٢٩٢
أطلق عليه اسم نظام العدالة Ordinamenti di
Giustizia وهو يقضى بخلع لقب نبيل على كل
تاجر أو مهنى عضو فى الحكومة بلغ ثراؤه حدا
يخشى منه استغلال الأهالى ، ثم استبعاده من
وظيفته .

وامعانا من واضح هذا « النظام » فى انقاذ
سكان فلورنسا من جور الحكام وضمان تمتعهم
بالحقوق والسلطات السياسية الديمقراطية ، عين
على المدينة عمدة Gonfaloniere يطلق
عليه أيضا اسم قائد الشعب Capitano del Popolo
يعاونه فى مهمته ستة مستشارين Priori
يتغيرون كل شهرين منعا من استغلالهم سلطان
الوظيفة أو تحيزهم لفئة دون أخرى ، كما أمر
بتشكيل عدة جمعيات شعبية Assemblee Popolari
لفض المنازعات واجراء المصالحات وفحص القرارات
والتصديق عليها أو تعديلها أو رفضها .

ورأى بعض أهل السياسة أن من الخطر القضاء
كلية على طبقة النبلاء بالوراثية والنبلاء بالشراء
بهذه الصورة القاسية ، واسناد الحكم والسلطة
الى طبقة المشتغلين بالتجارة وأهل الحرف من غير
ذوى الثراء والغنى . بينما أصر البعض الآخر على
ضرورة السير قدما فى طريق ذلك « النظام »
الديمقراطى النزعة البعيد عن سيطرة رأس المال
وأصحاب الجاه .

وبينما النزاع قائم بين البيض والسود ، اذ انبثق
نور النهضة فى ايطاليا وكان داتى أول من رفع
لواءها فى ميدان اللغة والأدب .

حياته وآثاره :

ولد داتى اليجيرى فى مدينة فلورنسا يوم
٨ مايو سنة ١٢٦٥ وهو ينحدر من أسرة لا عراقية
لها فى النبالة ، وانما اكتسبتها على اثر الانعام
برتبة « فارس » على أحد أفرادها القدامى يدعى
« كتشاجويدا » لخدمة عسكرية أداها لعاهل
جرمانى ، كما يدعى ذلك داتى فى الانشودة ١٥
من باب الفردوس .

ويؤكد المؤرخون الذين تناولوا حياة داتى انه
ينحدر من أسرة اليزى Elisei وان « كتشاجويدا »
هذا ، اقترن بسيدة من أسرة « دلى اليجيرى »
delli Alighieri انجبت له ولدا أثر
حمل اسم أسرة امه على أسرة أبيه . وان داتى
تخفيف لاسم « دوراتى » Durante .

ولا يدرى أحد كيف مر الشاعر الايطالى بمراحل
الصبا والشباب ، حتى ان « بوكاتشو » Boccaccio
نفسه - أول المؤرخين له - التزم الصمت ازاء هذه

الفترة من حياته . والراجح ان الفتى تتلمذ على يد استاذ عالم يدعى برونيو لاتينو Brunetto Latini من أنصار حزب البيض . تعلم منه داتى قواعد اللغة والخطابة والمنطق والرياضة والهندسة والفلك والموسيقى . ونجد لهذا المربي ذكرا ، لافى الفردوس كما قد يظن القارئ لأول وهلة ، وانما فى الانشودة ١٥ من الجحيم .

ولما كانت حياة العظماء الذين يتركون أسماءهم فى سجل التاريخ ، تظل عادة مجهولة فى الفترة السابقة لعلو صيتهم وانتشار سمعتهم ، فان تراجمهم عن تلك الفترة غالبا ما ينمقها كتاب السير بالأساطير والمبالغات . وهذا ما حدث لداتى . فاذا استبعدنا الروايات المختلفة والخرافات التى علقت باسمه من شدة اعجاب أهل زمانه به ، نجده قد أحب وهو فى التاسعة من عمره ، صبية فى الثامنة أقام والدها حفلا ساهرا فى داره فى مايو سنة ١٢٧٤ داعيا اليها جيرانه وابناءهم . كان بين المدعويين « الليجيري » وابنه داتى الذى راح يلعب مع اقرانه فى حديقة الدار ومن ضمنهم بياتريتشى Beatrice ابنة صاحب الوليمة . كانت الفتاة رقيقة الخصال ، جميلة الطلعة ، جذابة الملامح ، فانطبعت صورتها فى رأسه وحبا فى قلبه .

لقد أكن الشاعر لهذه البنت حبا كبيرا لازمه طيلة حياته رغم انه لم يقابلها باعترافه ، سوى أربع مرات .

ماتت أم داتى وهو فى الثالثة عشرة من عمره تقريبا فتزوج أبوه . فآثر هذا التصرف عليه ، لاسيما بعد ان انجبت السيدة أولادا زاحموه فى

البيت وفى حب والده له ، فانطوى على نفسه وبدأ يشعر بالفراغ .

وانقطعت عنه أخبار الفتاة الى أن سمع بوفاتها فى سنة ١٢٩٠ ، فتحطمت أعصابه وانطوى على نفسه حينا يبكيها .

أراد الفتى أن يخفف من وطأة هذا الحب ، فانكب على قراءة مؤلفات فرجيليو وهوراتسيو وأوفيدو ، فصقلت اسلوبه واكسبته مرونة ، وراح يلتهم مؤلفات سينيكا وتشيتشيرو فهذبت اخلاقه وأكسبته صبرا على المكاره .

ويدعى داتى انه رأى حبيبته فى المنام بعد سنتين من وفاتها فصمم على تخليد اسمها وجبه لها فى كتاب أسماء « أيام الصبا والشباب » Vita Nuova انتهى من تأليفه سنة ١٢٩٣ . وهو خليط من الشعر والنثر يمزج بين المذكرات اليومية والقصة ، فى قالب اعترافات ذات صبغة حزينة كثية تتأرجح بين الحب والموت .

و « أيام الصبا » فى الواقع ليست الا مجرد « مسودة » للكوميديا .

ولقد حير داتى الأدباء والمؤرخين من بعده لانه لم يذكر اسم أسرة هذه الفتاة ولا اسم أسرة أى فتاة أخرى أحبا . فمن تكون هذه الحبيبة التى هام بها الشاعر وهى منصرفة عنه ؟ اذا رجعنا الى عادات الأدباء والشعراء فى ذلك العصر والعصور التى سبقتة ، لوجدنا أنفسنا أمام قاعدة عامة كان يسير عليها الشعراء المتجولون Trovatori تقضى باخفاء اسم الحبيبة الحقيقى ، والاستعاضة عنه باسم مستعار . وترجع هذه العادة الى خوف المحب من زوج المحبوبة أو أبيها أو أخيها . ولعل داتى لم يشذ عن هذه القاعدة .

وما ان هلت سنة ١٢٩١ ، الا وتزوج داتى من جيمسا دوناتى Gemma Dorati ابنة أحد زعماء حزب السود . واندمج بفضل هذه الزيجة فى التيار السياسى ، فعين فى يونيو سنة ١٢٩٦ عضوا فى مجلس المائة ثم مستشارا لمدة شهرين حسب نص دستور فلورنسا سالف الذكر، أى من ١٥ يونيو سنة ١٣٠٠ الى ١٥ أغسطس من السنة نفسها .

هكذا زج شاعرنا بنفسه فى خضم التيارات السياسية والمنازعات بين الأثرياء والنبلاء من جهة، وأهل الطبقة الدنيا من جهة أخرى ليجمع الكلمة بين أهالى فلورنسا ويحل الوئام بينهم محل الخصام ولكن قدمه لم تكن راسخة فى السياسة قدر رسوخها فى الأدب ، فاذا به ينسلخ عن فئة السود المستظلين براية البابا ، لينضم الى البيض أنصار الامبراطور الألماني فريدريك الثانى .

وتغلب السود على البيض فى سنة ١٣٠٠ ورأوا نفى داتى ، فأصيب على أثر هذا النفى التعسفى فى نظره باضطراب فكرى ، وأزمة نفسية ، زعزعت ايمانه بالله وبالناس وبالعدالة .

ونجد لهذه الأزمة صدى فى مطلع الانشودة الأولى من الجحيم حيث يرمز اليها بالغابة المعتمة التى ضل فيها طريقه وهو فى سن الخامسة والثلاثين أى فى سنة ١٣٠٠ .

مل داتى الميدان السياسى وما يستلزمه من دسائس ومؤامرات ومكر ودهاء ، فقرر الابتعاد عنه وعن الحزبية ، ونراه يذكر ذلك فى الفصل السابع من باب « الفردوس » .

ولا نجد الا آثارا قليلة عن داتى فيما بين سنة ١٣٠٢ وسنة ١٣١٠ . انه كان مشردا يهيم على وجهه

فى المنفى من مدينة الى أخرى ، لا يدري أين يستقر ، ولا يحمل من زاد الدنيا الا ذكريات الصبا والحب والايمان بالوطن .

وفى سنة ١٣٠٦ الف كتيبا أسماه « الوليمة » Il Convivio يتعلق بالاخلاق والحب والحكمة والسياسة .

ولداتى مؤلف آخر ألفه فيما بين سنة ١٣٠٣ و ١٣٠٤ ولم يكمله كسابقه ، أطلق عليه اسم «العامية الفصحى» de Vulgaris eloquentia

ويلاحظ المطلع عليه ، معالجة داتى لفكرة اللغة الايطالية التى تناولها فى « الوليمة » ولكن من زوايا مختلفة . فهو يقسم اللغة الى قسمين أساسيين: اللغة العامية Locutio Vulgaris ولغة الثقافة ونموها مع المدنية والتقدم الفكرى والروحى Locutio Secundaria patius artificialis .

وضرورة خضوعها الى قواعد النحو والصرف . اما سفر داتى الى فرنسا فيشك بعض المؤرخين فى صحته ، بينما يؤكد البعض استنادا الى اسم أستاذ فرنسى يدعى « سيجيه » Siger كان يدرس علم المنطق فى جامعة باريس ، جاء ذكره فى الفصل العاشر من الفردوس .

وفى سنة ١٣٠٨ نرح داتى الى مدينة « لوكا » Lucca ولحق به أبنائه .

ولكن صدرت الأوامر من فلورنسا الى حاكم « لوكا » بطرده هو وأبنائه .

هام الشاعر على وجهه منذ هذا التاريخ الى ان استضافه البطريرك « باجانو دلا تورى » Pagano della Torre أمير مدينة « اوديني » Udine حيث ظل فى معيته حتى شهر سبتمبر سنة ١٣١٠ .

وفي هذه الأثناء ، رأى امبراطور ألمانيا « هنرى السابع » ان يغزو إيطاليا بجيش جرار « ليعيد الى الجزيرة النظام والأمن ، ويذكر أهلها بما لألمانيا من حقوق عليهم تناسوها على مر الأيام » .

ولما كان داتى ، كما ذكرنا فى صدر هذا البحث ، قد آثر الانضمام للحزب الموالى للنبلأ ولألمانيا ، فانه أظهر لهذا الغزو كل ارتياح على أمل العودة الى مسقط رأسه ، فلورنسا ، بعد دخول العاهل الألمانى فيها وقضائه على « السود » .

لم يستطع داتى الصبر حتى ينجح هنرى السابع فى حملته ، بل سارع بتحرير الرسائل الى ملوك الطوائف والأمراء بل والى سكان مدن إيطاليا ومنها فلورنسا بطبيعة الحال ، يحيى فيها العهد الجديد المنتظر بزوغ فجره على الوطن الممزق الأوصال .

ولكن مات الامبراطور الألمانى فوق خبر وفاته على داتى كالصاعقة .

وفي أثناء وجود الامبراطور الجرمانى فى الأراضى الايطالية ، ألف داتى — بدافع الوطنية الجارفة غير المتزنة — رسالة فلسفية سياسية باللغة اللاتينية أسماها : « الملكية » de Monarchia ويقصد بها فى الواقع « الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة » التى كان يحلم داتى بتحقيقها بفضل هنرى السابع ولقد ترجمها الى اللغة الايطالية « مارسيلى فيتشين » Marsile Ficin

تتعلق هذه الرسالة فى الواقع بنظام « الحكم الزمنى » أى الذى يخضع لأحوال الدهر وظروفه ، والذى يجب ان يقوم على الحكمة والفضيلة والعقل والسلام المسيحى .

وفى ١٤ سبتمبر سنة ١٣٢١ ، لفظ الشاعر الفلورنسى أنفاسه الأخيرة فى « رافنا » دون ان يتحقق أمله فى أن يرى نفسه وتاج الفخار يزين رأسه ، أو أن يعود الى الحياة بين مواطنى بلده . ولكنه ترك أثرا خالدا هى الكوميديا الالهية التى استغرق تأليفها حوالى ١٨ عاما وكانت هذه المؤلفات الأخرى التى استعرضناها سريعا تمهيدا لها ونواة .

أثره الخالد :

تنقسم الكوميديا الالهية الى ثلاثة أجزاء تضم مائة أنشودة : أربعا وثلاثين للجحيم وثلاثا وثلاثين لكل من المطهر والفردوس . ولقد حاول « ارتودى مونتور » Artaud de Montor القائم بالأعمال فى السفارة الفرنسية بروما فى أوائل القرن التاسع عشر ، واحد عشاق أدب داتى ، ان يعد ابيات الكوميديا فوجدها ١٤٢٢١ بيتا : الجحيم ٤٧٢٠ والمطهر ٤٧٥٤ والفردوس ٤٧٤٧ ثم هو يضيف قائلا : « اذا كان من المستطاع حصر عدد الأبيات ، فمن العسير حصر ما حوته هذه الرائعة الأدبية من مشاعر وأحاسيس وأفكار يشوبها الرعب والفزع والانشراح والفرح » .

ويقال ان داتى اختار العدد ثلاثة رمزا للثالوث المقدس ، ورقم مائة لانه يمثل العدد عشرة مضروبا فى نفسه ، لان أهل العلم والمعرفة الغربيين فى القرون الوسطى ، كانوا يعتبرونه رمزا للكمال ، فأراد ان يضى على مؤلفه ذلك الرمز . ويرجع الذين تصدوا لتاريخ الشاعر الفلورنسى وأدبه ، انه بدأ يعالج الكوميديا فى سنة ١٣٠٠ وانتهى منها فى سنة ١٣١٨ . أما تسميتها « بالكوميديا » فلانها تبدأ بما يزعج وتنتهى بما يفرح ، على تقيض

« التراجيديا » التى تبدأ بما قد ترتاح اليه النفس وتنتهى بمأساة .

أما وصفها بالالهية فلا يرجع الى رؤية داتنى لله فى السماوات العلا فى آخر أنشودة الفردوس، وانما هى صفة تخلع مجازا فى اللغة الايطالية على كل ما يبعث الاعجاب والروعة لاتقانه وكماله . فتكون ترجمتها الصحيحة « الكوميديا الرائعة » أو « الكوميديا الممتازة » لا الالهية نسبة الى الاله كما ظن أول ناقلها الى العربية . ولما كان الخطأ الشائع المشهور ، يحل عادة محل الصحيح المهجور، فقد تركناها كما سميت .

وطبعت الكوميديا لأول مرة فى سنة ١٤٧٢ بمدينة « فولجينو » Fulgino التابعة لدولة الفاتيكان فى ذلك الوقت ، تحت عنوان : « كوميديا داتنى الجيبرى الفلورنسى » . La Commedia di Dante Alighieri di Firenze وظهرت لها طبعة فى سنة ١٥١٢ بمدينة البندقية تحت اسم « دواوين الشاعر الرائع داتنى » Opere del divino poeta Dante ونلاحظ هنا صفة Divino أى « الهى » مخلوعة على الشاعر نفسه ولكنها لا تحمل فى الواقع ، كما بينا ، الا معنى الروعة والامتياز . وهى حجة لنا على مترجمى الكوميديا الذين غابت عنهم بعض الخصائص المجازية فى اللغة الايطالية . وأخيرا نشرها « برناردو ستاينيون » Bernardo Stagnino باسمها الذى اشتهرت به حتى يومنا هذا .

وفى سنة ١٦١٤ صدرت أوامر الرقابة الكنسية بمدينة مدريد ، بوجوب حذف البيتين الثامن والتاسع من الانشودة الحادية عشرة من الجحيم، حفظا لكرامة البابا « انا ستازيو » Anastasio ،

وحذف السبعة أبيات الأخيرة من الانشودة التاسعة من الفردوس لمساسها بضعف عقيدة البابا كليمنتو الخامس Clemento V وكرادته .

وتشعبت آراء النقاد فيما أرادته داتنى من الكوميديا . فمنهم من رأى فيها لونا من التشفى والانتقام من أعدائه السياسيين ، ومنهم من ظنها هدفا لتخليد اسم معشوقته « بياتريشى » . والواقع ان الشاعر لم يقصد فى قرارة نفسه كل هذا فحسب، بل قصد أيضا ترك عمل أدبى بناء أراد به وعظ الذين ضلوا سواء السبيل من أهل عصره . ولا أدل على ذلك من تصريح الشاعر نفسه فى رسالة بعث بها الى « كان الكبير » Cangrande - الابن الأصغر للامير « دلاسكالا » الذى مر ذكره - يقول فيها : « ان موضوع الكوميديا ، اذا أخذ بحرفيته بدا وصفا لحالة الأرواح والانس البشرية بعد الموت ، واذا نظر اليه من الناحية الرمزية ، بدا وصفا للانسان الحر فى تصرفاته ، المستسلم لعدالة السماء التى تكافئه أو تعاقبه حسب أعماله . أما الغرض منها فهو نزع لباس الضلالة عن الناس وارشادهم الى السعادة الأبدية ، واما الحكمة منها ، فهى عرض الأخلاق والسجايا البشرية على طبيعتها » .

وان كل من يقرأ الكوميديا بامعان وترو ، يقف على الأهداف التى رمى اليها المؤلف : فمثلا يذكر داتنى فى المطهر ، فى الانشودة الخامسة ، على لسان الأنفس الضالة ما يلى : « اتنا ظللنا نرتكب الخطايا الى ان وافتنا المنية ، فاستنارت بصائرنا واستغفرنا لذنوبنا وتبنا منها الى الله .. » ثم هو يجعل احدى هذه الأنفس تناجيه بقولها : « انى استحلفك أن تدعو أهل مدينة « فانو » Fano بأن يصلوا من أجل خلاص روحى وتطهيرها من

وما النار عنده الا انتقام الله ، والمطهر رحمته ،
والفردوس رضوانه .

وفي هذه الرحلة التي قام بها دانتى بروحه
لا بجسده كما يقول ، نراه قد اتخذ الشاعر
اللاتيني الوثنى « فرجيليو » Virgilio هاديا له
ومرشدا في الجحيم ثم في المطهر ، حتى اذا ما بلغ
قمة هذا المكان ، تركه وأخذت «بياتريتشى» بيده
الى الفردوس ليتمتع بمشاهدة النور الالهى الذى
« يقصر قلمه عن وصفه » ، على حد تعبيره .

واذا تعقبنا الشاعر الايطالى فى جولاته ووصولاته
فى العالم الآخر ، نراه قد جعل من جسم الانسان
وروحه مادة متكاملة بنفسها أعطيت حرية التصرف
بواسطة عقل يجعل من المرء أنبل المخلوقات . بيد
ان هذا العقل نفسه قد يهبط به الى الهاوية
اذا لم يستطع السيطرة على أهوائه ونزواته .
فاستسلامه للشهوات والخطايا يفسد ذلك التكامل
البشرى ويهوى بالمرء الى « الهاوية السحيقة » ،
أى النار . أما اذا تغلب العقل على الشهوة ، فيصل
الانسان الى المطهر ومنه الى الجنة . وان العاصى
لأوامر الخالق لن يفلت من العقاب مهما حاول .

والطريق من الجحيم الى الفردوس ، قد ملأه
دانتى بأحداث عاشتها شخصيات تاريخية معروفة
وأخرى مشهورة فى عصره ، يكشف عنها الغطاء
لتكون عبرة لمن لا يزالون على قيد الحياة من أهل
عصره ، عسى ان يثوبوا ويصلوا الى نعيم الآخرة
الذى ترفرف عليه رحمة الله ونوره القدسى .

ولقد نصب دانتى نفسه قاضيا على هذه
الشخصيات فحكم عليها حسب هواه ، لا بناء على
معيار الايمان أو العقيدة . فنراه مثلا قد جعل
من « كاتون » الخطيب الرومانى المفوه ، الوثنى

الذنوب . « وتتجلى فكرة وعظه فى الانشودة
الثانية والثلاثين من المطهر ، عندما تنصحه معشوقته
بياتريتشى « بأن يصف الى أهل جيله حالة من
ساروا فى طريق الغواية لتكون عبرة لهم ، وقالت
لى بياتريتشى : « سوف تنتقل بدورك
الى العالم الآخر ، وتعيش فى الجنة
بجانبى ابد الأبدين ، ولكن انظر الى هذه
العربة التى ينقض عليها هذا النسر وينتزع جزءا
منها ذلك التين وانقل هذا الذى تراه الى أولئك
الذين يعيشون منغمسين فى الضلالة ليرتدعوا
وتكون واعظا لهم فى أنفسهم » .

وفي الانشودة الثالثة والثلاثين من المطهر
تقول له معشوقته بعد ان أرته الوان الانتقام
الالهى من العصاة والمارقين وفسرت له أسباب
ذلك : « تذكر كلامى هذا وانقله دون تحريف
الى أولئك الذين يتمتعون بحياة الملذات والشهوات
وذكرهم بان الحياة تخطو بهم الى الموت » .

ومثل هذه الجمل الوعظية كثيرة فى الكوميديا ،
وفيها الدلالة على ان الرجل كان ، كأدباء القرون
الوسطى ، يهتم بالتعاليم الروحية ، فأراد ان يهذب
أخلاق أهل جيله عن طريق الوصف والتصوير لا
بالريشة والألوان ، وانما عن طريق الشعر والخيال ،
جاعلا من نفسه الشاهد العيان لما فى سقر من
عذاب ، والواصف لشوق أهل المطهر الى دخول
الجنة ، والراوى لما فى الفردوس من نعيم وسعادة .

فالكوميديا ليست اذن الا فكرة رجل عن المجتمع
البشرى وعن حياة ناسه فى الدنيا والآخرة كما
استقاها من الكتب المقدسة ومن مؤلفات أدباء
ومفكرين شرقيين وغربيين سبقوه فى هذا المضمار .

المتنحر ، حارسا للمطهر ، كما نجاهه يعد « موتسيو شيفولا » Muzio Scoevola بالفردوس رغم وثنيته . بل إن داتنى لم يعرف العدالة كقاض ، فهو يضع مثلا ، مدرسه واستاذ « برونيتى » فى الدرك السابع من الجحيم للشذوذ الجنى الذى كان مشهورا به ، بينما يضع سقراط فى الدرك الأول من النار ثم هو يجلس يوليوس قيصر ، فى المطهر ..

بل هناك ماهو أدهى من ذلك ، فبينما هو يقدس الرابطة الزوجية فى المطهر ويشيد « بالأزواج الذين التزموا العفة التى تقتضيها فضيلة الزواج وقديسيته » ، نراه يقسو على الزوج الذى يقتص من زوجته التى تخونه مع عشيقها أكثر من العشيقين اللذين جرحا شرفه ، اذ يضعهما فى الدائرة الثانية من الجحيم ، بينما يعد الزوج المقتص لشرفه فى الدرك الأسفل من النار ويبدو ان داتنى كان يحكم على الناس حسب هواه لا حسب المعايير الدينية . ويجدر بنا الآن ، بعد هذا التحليل السريع أن نلخص الكوميديا .

١ - الجحيم :

تاه داتنى وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره فى غابة مظلمة ، فحاول الخروج منها بتسلقه أحد تلالها المشمسة ، ولكن اعترض طريقه فهـد وأسد وذئبة ، وبينما هو يقف مرتعدا من الخوف لمح شبعا ، فطلب منه النجدة ، فاذا هو الشاعر اللاتينى « فرجيليو » الذى يهدى من روعه ويخبره بأن « بياتريتشى » هى التى أوفدته اليه لينقذه وليصحبه الى الجحيم والمطهر ثم تصحبه هى الى الجنة . يصل داتنى الى الجحيم فيرى مكتوبا على بابها بحروف داكنة هذه العبارة :

« الطريق الى حيث القوم المجرمون ، فأنا عدالة الخلاق العظيم ، صنعتى يد القدرة الالهية والحكمة السامية والحب الأزلى ، لم يسبق وجودى غير الكائنات السرمدية . ولقد كتب على الخلود . فيا أيها الداخلون من بابى اتركوا كل أمل » .

يدخل داتنى بصحبة مرشده هذا الباب ، فيجدان نفسيهما فى واد فيه أناس يصرخون من لسع النحل وحشرات أخرى : هم أرواح الذين عاشوا على الأرض دون ارتكاب اثم أو عمل خير ، وأرواح الجبناء والسليبين . ثم يجلس داتنى وفرجيليو فى زورق ويسيران به فى النهر ، الموصل الى طبقات جهنم ودوائر على حد تعبيره . فينام داتنى نوما عميقا أثناء هذه الرحلة النهرية ثم يستيقظ ليقتص أهوال الجحيم ويصف « طبوغرافيتها » على الوجه الآتى : عندما نزل غضب الله على ابليس ، قذف به الى الأرض فحدث ثقل جسمه الضخم فجوة هائلة على شكل مخروط رأسه فى جوف الأرض ، ينقسم الى تسع طبقات أو دوائر ، يتناقص حجمها كلما اقتربت من رأس المخروط ، يسكنها الآثمون .. فالدائرة الأولى وتسمى « وادى الزفرات » ، تقيم فيها أرواح الأولاد الذين ماتو دون « تعميد » ، والعلماء والفلاسفة والشعراء الذين عاشوا فى عصور الوثنية ولم تدركهم المسيحية ولكنهم عملوا الصالحات فى حياتهم الدنيوية . ويتلخص عذاب هؤلاء فى حرمانهم من رؤية الله .

وتضم الدائرة الثانية أرواح أهل الهوى الآثمين الذين تعصف بهم زوبعة هوجاء تجعلهم يدورون على أنفسهم دوران الخدروف .

وخصصت الدائرة الثالثة لأرواح النهمين الشرهين المفرطين فى الأكل ، والطفيليين . ويتلخص

عذابهم فى تساقط البرد عليهم وقطع الجليد ، ويمزق كلب ضخيم جلودهم بمخالبه .

وتقع فى الدائرة الرابعة أرواح المسرفين والبخلاء حيث يدفع كل منهم ب صدره صخرة ثقيلة ، ثم تدور كل طائفة منهما فى اتجاه متعارض لاتجاه اختها ، ثم يتصادم أهل كل فئة بعنف . ويتكرر هذا المنظر دون هوادة أو انقطاع .

ثم يصل داتنى وصاحبه الى مستنقع ملئ بالطين - هو الدائرة الخامسة تغوص فيه أرواح مرتكبى الخطايا بدافع ثورات الغضب ، ومن بينهم أعداء داتنى من أهل فلورنسا .

وبعد اجتياز داتنى ومرشده هذا المستنقع فى زورق ، يدخلان مدينة اللهب الكائنة فى الدائرة السادسة ، وهى مئوى أرواح أهل البدع والهرطقة حيث ترقد توابيت من نار .

ثم ينزل الزائران بمشقة الى الدرك السابع من الجحيم ، وهو ينقسم الى ثلاث دوائر اختصت الأولى بالمتهورين واللصوص ، والثانية بالمنتحرين والمغتالين ، والثالثة بالعائنين فى الذات الالهية ومربكى الشذوذ الجنسى وتنزل عليهم شواط من نار دون انقطاع بينما هم يرقدون على رمال محرقة فى أوضاع مختلفة . ويجدداتنى فى هذه الدائرة استاذة « برويتى » وقد شوهدت النار وجهه .

أما الدائرة الثامنة ، فتوسطها بئر عميقة تحيط بها عشر حفيرات مستديرة تتصل فيما بينها بجسر من الحجارة . ويضع فيها داتنى أرواح المرأين وهى تضرب بالسياط ثم تغمس فى بحيرة من الغائط ، وأرواح الرهبان الذين باعوا الغفران للناس بالمال

وقد دست رؤوسهم فى جوف الأرض بينما اشتعلت أقدامهم نارا ، وأرواح المنجمين والعرافين وهى تسير القهقرى محرومة من النظر الى الأمام لأنها حاولت خداع الناس بادعائها كشف حجب الغيب ، وأرواح المرتشين من رجال القضاء وهى تغمس فى قطران آن ، وأرواح المنافقين وقد غطت رؤوسها بقلانس من رصاص مصهور ، وقطاع الطرق وتلدغهم الافاعى فيشتعلون نارا ثم يتحولون رمادا ثم يعودون الى الحياة وهلم جرا ، والمختلين والمغتايين وقد تقرحت جلودهم بعد اصابتها بالبرص والجرب ، ومزيفى النقود وقد اصيبوا بمرض الاستسقاء .

وأخيرا يصل الرجلان الى الدائرة التاسعة ، وهى قاع الجحيم وتنقسم الى أربع دوائر ، يتعذب فى كل منها صنف من الخونة ففيها خائنو الرابطة الزوجية ، وأواصر القرابة ، والمبادئ السياسية ، والوطن ، ويفترسهم ابليس بانياب حداد .

وفىها أيضا ابليس وقد غمرته حتى صدره بحيرة من جليد ودموع الدم تنساب من مآقيه ، بينما يمضغ بين فكليه « يهودا » الذى خان المسيح « وبروتوس » « وكاسيوس » اللذين خانوا يوليوس قيصر ، ولى نعمتهما .

٢ - المطهر :

يتجه داتنى وفرجيليو بعد ذلك الى المطهر تاركين أهل الشمال فى العذاب المهيئ ، متجهين الى أهل اليمين . وعندما وصلا الى المطهر شعرا بالهدوء التام وبدأ يستنشقان الهواء النقى تحت زرقاء السماء الصافية . وبينما يتطهر داتنى فى مياه بحر بجوارهما ، يقترب منهما زورق يتلأل

نورا ، يدير دفته ملك ، ثم تنزل من هذا الزورق
أرواح كثيرة تستحم فى مياه ذلك البحر تطهرا من
الذنوب قبل دخولها الجنة .

ويتكون هذا المطهر من سبع دوائر تختص كل
واحدة منها بخطيئة من الخطايا السبعة الكبرى التى
نص عليها الدين المسيحى : فالتكبرون يطوفون
بجبل المطهر وهم يحملون اوزارا يرغمهم ثقلها على
انحناء رؤوسهم ، والحاسدون وقد التصقت
أجفانهم فلا يستطيعون رؤية أى شئ ، والغضبى
من الناس وقد غمرهم دخان كثيف ، وأهل الخمول
والكسل يسرون دون توقف ، والبخلاء والمسرفون
منبطحون أرضا ، وأولو النهم والشره يتضورون
جوعا وحلوهم جافة من شدة العطش .

ومن قمة جبل المطهر ، يظهر الفردوس الذى
تصعد اليه الأرواح بعد تطهرها من ادرانها .

ثم يجتاز داتى ورفيقه سورا من اللهب ضرب
بين المطهر والفردوس فيجدان الورود والأزهار
وأجمل الرياض ، ثم تظهر له « بياتريتشى » وعلى
رأسها تاج من أغصان الزيتون وعلى وجهها حجاب
أبيض ، ويغطى جسدها رداء من نور عليه معطف
فى لون الزمرد الأخضر . وفى اللحظة تنتهى مهمة
فرجيليو ، فيختفى تاركا داتى بين يدى
« بياتريتشى » لتسير به بين دوائر الجنة . ولكن
قبل أن يلج داتى باب الفردوس يغطس فى نهر
« النسيان » ليصبح خليقا برؤية الله .

٣ - الفردوس :

يصعد داتى مع رفيقه الى تسعة أفلاك
الواحد بعد الآخر . الأول فلك القمر حيث تقيم
فيه أرواح البررة ، والثانى عطارد وتعيش فيه

أرواح أهل الجد من المشرعين والحكام ، والثالث
الزهرة ويضم أرواح أهل الزهد ، والرابع الشمس
وفيه أرواح علماء الكنيسة على هيئة تيجان من نور
والخامس فلك المريح الذى يقطنه الشهداء ، ومن
ضمنهم جد داتى « كئشاجويدا » والسادس
المشتري ويسكنه أهل العدل من الملوك ، والسابع
زحل وفيه المتصوفون . أما الثامن فهو فلك النجوم
الثابتة ، وتبدو فيه عظمة المسيح وجلال قدره ،
وهو جالس بين القديسين والأولياء . ويصعد الشاعر
الفلورنسى الى الفلك التاسع فيتمتع بمشاهدة
الجوهر الالهى ثم يرقد الى عليين Empireo حيث
بهاء الذات العلية التى طفى سنا نورها على عقله
وذاكرته فجعلته عاجزا عن وصف ما رآه .

يبقى القول بأن فكرة الكوميديا ليست جديدة
ولا فريدة فى نوعها ولا غريبة فى بابها ، بل سبق
داتى إليها فى هذا المضمار أنبياء وشعراء ومفكرون
ورواة نقلوا عن التراث الاسلامى الذى غزا أوروبا
منذ استيلاء العرب على الأندلس فى صورة قصص
دينية وأساطير ورؤى ، شعرا ونثرا . وكان للاسلام
الفضل فى ظهور ما يمكن أن نسميه « بأدب العالم
الآخر » وانتشاره فى الغرب خلال القرون
الوسطى ، ذلك لأن مصير الروح بعد موت الجسد
كان الشغل الشاغل لرجال الدين والأدباء بل ولعامّة
الناس فى أوروبا بصفة خاصة ، حتى وجدوا فى
الاسلام معينا لا ينضب فانتهلوا منه ماشاءوا .

فداتى لم يكن مبدعا ولا مبتكرا وانما رواية
ينقل ويقتبس ثم يلبس ما انتحله اردية من خياله
كشاعر . والأفكار العلمية والفلسفية التى وردت
فى الكوميديا ليست جديدة وانما هى تكرار لما
جاء على لسان من سبقوه من فلاسفة وعلماء
ومفكرين .

ولقد لاقى الكوميديا ، بالرغم من ذلك ، شهرة عالمية كاتتاج فكرى وتراث انساني ، كما لاقى دانتى صيتا واسعا . فما هو سبب ذلك .

يرجع السبب الى عدة عوامل منها :

١ - التراث الاسلامى الذى نقل عنه الشاعر الفلورنسى الشئ الكثير .

٢ - طريقة نظمه التى تركز على قوة البناء ، ومتانة الأسلوب ، وترابط المعانى والحساب الدقيق الذى التزمه فى قافية الثنائيات والثلاثيات المتشابهة والتى تتطلب عقلا رياضيا ، وصبرامضيا وقريحة وقادة ، وموادا غزيرة ، واطلاعا واسعا .

٣ - الرموز التى ملأ بها الكوميديا فاكسبتها ابهاما وتعقيدا زاد فى روعتها فى أعين قرائها ودفع النقاد الى محاولة كشف استارها واستشفاف اسرارها فتضاربوا فى تفسيرها .

فلقد ألبس دانتى مدرسة الرموز الاغريقية والرومانية ثوبا قشيبا وصبغها بلون أدبى رقيق مبهم يترك أكثر من معنى فى نفس القارىء .

٤ - مختلف العلوم والمعارف والمذاهب الفلسفية التى دسها فى صلب الكوميديا بطريقة مسلية جعلها دائرة معارف مصغرة ، يطوف فيها القارىء متنقلا بين مملكة الظلام بما فيها من عذاب وبكاء وعويل ومملكة الأمل بأرواحها التى تطمع فى الرحمة الالهية ، ومملكة السعادة الأبدية حيث النعيم المقيم والنور الالهى .

ولم تسلم الكوميديا من لسان الناقد اللاذع فولتير اذ يقول عنها :

« ان الكوميديا أصبحت لا تقرأ فى أوربا لكثرة ملأها من كناية وتلميح الى أحداث مجهولة . ولا

يحتفظ بها فى مكتباتهم الا المولعون بالتحف لا بالقراءة .

ويلقبه الايطاليون بالأديب الرائع ولكن روعته مستترة غير مرئية . وان التضارب فى تفسير رموز كتابه لهى الدليل على أنه مبهم غير مفهوم» وقال عنها « فلويين » : « لا أريد أن أقول عن الكوميديا بأنها مملة ، لأنها كتبت لعصر معين لا لكل العصور . »

وحلها « أوزانام » Ozanam بهذه الجملة : « ان الكوميديا هى نتيجة أفكار استقها دانتى فى مثابة طويلة ، من المدارس المسيحية والعربية والسكندرية واللاتينية والاغريقية ، ولكن يظهر فيها بوضوح وحى الشرق » .

ونحن نؤكد بدورنا أن التراث الشرقى العربى الاسلامى هو الذى خلدها .

والآن يجمل بنا أن نترجم مختارات من باب الجحيم .

الجحيم :

« وجدت نفسى ، عند بلوغى منتصف طريق العمر ، فى غابة معتمة تاهت فيها معالم للطريق آه . ما أثقل الحديث عن تلك الغابة الوعرة الكثيفة الموحشة ، التى ينتابنى منها الخوف كلما تذكرتها . ان بشاعة منظرها بلغت حدا ، تهون أمامه مرارات الموت ، ولكن الخير الذى وجدته فيها ، يجعلنى أترك ظهريا بشاعتها ، لأقص مصادفته فيها من أمور أخرى . لا أستطيع ، على وجه الدقة أن أروى كيفية دخولى هذه الغابة ، على أثر انحرافى عن الصراط السوى ، للغفلة التى استولت على .

ولكن ما ان وصلت الى سفح هضبة ينتهى عندها
الوادى الذى ملأنى هلعاً ، حتى رفعت بصرى ،
فرايت قمة تلك الهضبة مكسوة بأشعة الكوكب
الذى هو خير مرشد للناس فى أسفارهم . عندئذ
خفت وطأة الرعب الذى ملأ قلبى فى الليلة التى
كانت حالى فيها تستحق الرثاء والشفقة .

وكما يقف الناجى من بحر متلاطم الأمواج ،
لاهثاً متقطع الأنفاس على الشط متأملاً المياه التى
كادت تهلكه ، فقد التفت الى الوراء - ولم تكن
نفسى قد هدأت تماماً من روعها - انظر الى تلك
الغابة التى اجتزتها ، ولا ينبو منها من يتعوق
فيها . وبعد أن ارحت جسمى المتعب ، استأنفت
صعود المرتفع المقفر ، بحيث كنت ارتكز دائماً على
القدم السفلى . وما أن ارتقيت خطوات حتى
ظهر لى فهد خفيف الحركة سريع العدو ، قد غطته
فروة رقطاء ، فصمد فى وجهى وسد على الطريق ،
حتى انى فكوت فى أن ألوذ بالقرار منه أكثر من
مرة . وتنفس الصبح ، وارتفعت ذكاء تحف من
حولها الكواكب التى كانت تتبعها منذ اللحظة التى
خلقت المحبة الالهية هذا الصنع الجليل المتقن .
وداعبنى الأمل فى النجاة من ذلك الفهد ذى الفروة
اللامعة ، عندما طلع نهار فصل الربيع اللطيف ، بيد
أن خوفاً جديداً اتابنى عندما بدا لى أن أسداً
قد ظهر ، يتقدم نحوى شامخ الرأس ، شديد
السعار ، يبعث منظره الرعب فى جو المكان ، ثم
ظهرت لى ذئبة نهمة ضامرة تحمل أثر نكباتها على
الناس ، فهالنى ما فى نظراتها من شر ، وتبدد أملى
فى تسلق الهضبة ، وأصبحت فى كربة من صرف
حياته فى جمع المال ، ثم فقدته فى لحظة ، فذرف

الدمع عليه حزناً وأسى . هذه كانت حالى مع الدابة
الشكسة وهى مقبلة على رويدا رويدا مرغمة اياى
على التراجع الى الجهة التى تخبو الشمس فيها .
وما أن انحدرت صوب الوادى المعتم ، حتى لاح
أمامى شخص تبدو عليه امارات صمت طويل افقده
دربة الكلام . وماكدت أراه فى هذه الفلاة
الرجبة حتى صحت أناديه : حنانيك كائنا من كنت
طيفاً أم بشراً سوياً . فأجبنى : لست بشراً وان
كنته فيما مر من الزمان ، واصل أبوى من
« لومبارديا » لكنهما اتخذا « منتوفيا » وطناً .
وولدت فى زمن يوليوس قبل أن يتوج ، وأقمت
فى روما فى عهد « أغسطس » الطيب ، أيام عبادة
الآلهة الزائفة الكاذبة .

انه طيف الشاعر « فرجيليو » الذى طمأن داتنى
واقذه من شر الوحوش الثلاثة وأخبره بأن
« بياتريتشى » هى التى أرسلته لنجدته ، ثم سلك
به طريقاً متعرجاً يصل الى الجحيم المكتوب على
بابها : « فيا أيها الداخلون من بابى اتركوا كل أمل »
ودخل داتنى ذلك الباب وترك كل آماله عنده ..
فلقد عاش بائساً فى صباه ، لفقدانه حبيبته .

وعاش بائساً فى شبابه ، لأنه لم يستطع خدمة وطنه
وتوحيد كلمته كما أراد .

وعاش بائساً فى منفاه ، لأنه ظل مشرداً بعيداً عن
مستقر رأسه .

وعاش بائساً فى كهولته ، لأنه مات فى الغربة
و لم يلبس تاج الفخار فى الشعر والأدب .

ابراهيم المويلحى